مجلة الدراسات الإسلامية (عدد خاص - ندوة البخاري) المجلد 32، العدد (1)، ج1، ص ص171 - 189، الرياض (2020م/1441هـ)

الاتجاهات الفكرية المغربية المعاصرة في قراءة صحيح البخاري وأثرها العقدي والفكري

د. حسان بن إبراهيم بن عبد الرحمن الرديعان(*)

جامعة حائل

المستخلص: تناول البحث الاتجاه الفلسفي والتاريخي وكذلك اتجاه المدرسة العقلية الحديثة وقراءتهم لصحيح البخاري في بلاد المغرب وتحديدا المغرب الأقصى (المملكة المغربية) وذلك لتوافر هذه الاتجاهات فيها وتدويناتها الباقية لتأثر بقية بلدان المغرب وكذلك المشرق برموز هذه الاتجاهات. وتضمن البحث الذي سلك منهج الاستقراء والتحليل نماذج لقراءات تلك الاتجاهات لصحيح البخاري. وقد خلص البحث إلى أن هذه الاتجاهات تخالف موقف السواد الأعظم من الناس المعظم لصحيح البخاري، وأن هذه الاتجاهات لها تأثير محدود على الناس. لكن ينبغي متابعة نتاج هذه الاتجاهات أولا بأول ومناقشته مناقشة علمية.

الكلمات المفتاحية: البخاري، الاتجاهات، الفكرية، المغرب، المعاصرة.

Contemporary Moroccan Intellectual Trends and their Perusals of Sahih al Bukhari; its Ideological and Intellectual Impact

Dr. Hassan bin Ibrahim bin Abdul Rahman Al-Radiaan*

University of Hail

Abstract: The research deals with the philosophical and historical trends as well as the contemporary intellectual doctrines (trends) and their perusal of the book Sahih Al-Bukhari in the countries of the Maghreb region; specifically, the far west (The Kingdom of Morocco). The research deals with this topic due to the prevalence of these trends in these regions and the availability of the preserved compilations of these doctrines, that may influence the rest of the countries of the Maghreb region as well as the Eastern countries, with the prominent figures of these trends .

The research follows inductive content analysis method and contains samples of the perusals of Sahih Al-Bukhari by these trends .

The research concluded that these trends contradict the stance of the majority of the people who revere the book of Sahih Al-Bukhari. These trends have a limited impact on the majority of the people. Nevertheless, it is necessary to closely pursue and scientifically discuss the consequences of these trends.

key words: Bukhari, trends, intellectual, Morocco contemporary.

(*) أستاذ مشارك، قسم الثقافة الإسلامية، كلية التربية، جامعة حائل

(*) Associate Professor, Department of Islamic Culture, College of Education, University of Hail

البريد الإلكتروني: hassanhail@hotmail.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن لصحيح البخاري في بلاد المغرب العربي عمومًا، وفي المغرب الأقصى على وجه الخصوص، قيمة عظيمة في نفوس أهل العلم وعامة الناس، منذ أن وصل إلى المغرب في القرن الرابع الهجري إلى يومنا هذا. وجانب الرواية للصحيح في المغرب وحِفظِهِ ونُسخِهِ الخطية وتدريسه ووضع الحواشي والشروح عليه جانبٌ مضيء حافل، حتى بلغ هذا الصحيح من نفوس العامة والخاصة مبلغًا عظيما، إلى أن تجذر في عادات أهل المغرب، فصار ثمنًا في صداق النساء، وموضع قراءة في الأعياد والمناسبات والاستعداد للحروب، فضلا عن الحياة الفكرية بشكل عام في المغرب.

ومع ظهور الحركات الفكرية في بلاد العرب في القرن الماضي كالمدرسة العقلانية والمذاهب الماركسية والعلمانية والاتجاهات الفلسفية فيها؛ كان المغرب العربي أحد مراكز التأثر بهذه الحركات والاتجاهات، فنشأ مجموعة من المفكرين أو العلماء المتأثرين الذين حملوا آراء هذه الحركات والتوجهات، فتناولوا في أطروحاتهم جانب التراث، وكانت السنّة النبوية - وعلى رأسها صحيح البخاري - محل آرائهم وتنظيرهم، ومشاريعهم الفكرية، فأصبحت هذه الآراء اتجاهات فكرية تحمل نظرًا جديدًا للتراث، من حيث القطعية واليقينية، ومن حيث الخروج عن الأصول العلمية والمقاصد الشرعية التي سار عليها علماء الإسلام منذ القرون الأولى تجاه تراث المسلمين ومصادر الشريعة.

وقد أصبحت هذه الأطروحات الفكرية تجاه صحيح البخاري محل اهتمامٍ واحتفاءِ المراكز الفكرية في المشرق العربي من مراكز بحث ودور نشر وقنوات فضائية، وكذا استقبال مباشر من القارئ العربي لها في معارض الكتب.

وقد جاء هذا البحث الموجز ليُبيِّن القراءات الفكرية والأصول النظرية لهذه الاتجاهات في المغرب العربي، ونظرتها لمصادر السنّة النبوية من خلال صحيح الإمام البخاري الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله، تعالى.

*** حدود البحث:**

جعلتُ حدود هذا البحث في الاتجاهات الفكرية من أهل المغرب الأقصى (المملكة المغربية) وقراءتها ونظرتها لصحيح البخاري، حيث اجتمع فيها عدد من الاتجاهات الفكرية التي تركت أثرًا فكريًا واضحًا في المغرب، مع بيان الأثر الفكري لهذه الاتجاهات في نظرتها وقراءتها لصحيح البخاري.

*** مشكلة البحث:**

مستند الاتجاهات الفكرية هو العقل والميول

الفكـري والهـوى ونحـو ذلـك، ومقابلتهـا في المناقـشة والمحاججة بضوابط العلم ورسمه وحدوده تكـون بـلا حـد ولا ضـابط؛ لأن نظـرة الاتجاهـات الفكريـة عـلى اختلافها للسنة النبوية – وعلى رأسها صحيح البخـاري – ليست على سبيل واحد ونسق مطرد، وإلا لكان هناك ثمرة من عـرض الـشبه والحجـج ونقـضها. فلـو كـان حديث الآحاد هو السبب للطعن في السنة، وكونـه غـير يقيني، لكان الرد عـلى هـذه الحجـة مطـردًا يـؤتي ثـماره معهم، لكن هذه الاتجاهات تخرج مـن هـذه الـشبهة إلى شبهة أخرى، وهي مخالفة الحديث للعقل، ثـم الانتقـال إلى حجة التأويل، وأن المعاني نسبية إلى غير ذلـك مـن الحجـج والشبه التـي لا تنـضبط بـضوابط علميـة ورسـوم حدِّيَّـة. والنـاظر إلى مـن ينـاقش الطـاعنين في أحاديـث البخـاري يجدهم يخوضون مع فكر متناقض لا يثبت على سـبيل، ولا يستوي على جادة؛ لأن الهوى هو المتحكم في كل شبهة.

والمشكلة التي يعالجها هذا البحـث هـي في بيـان الاتجاهـات الفكريـة، ومنطلقاتهـا النظريـة، ومنزعهـا الفكري، وخطوطها العريضة في نظرتها العامة لـصحيح البخاري نموذجًا لنظرتها وقراءتها للسنة النبوية، كالنزعة التاريخية أو النزعة الفلسفية ونحوها.

*** عناوين البحث:**

مدخل: الاتجاهات الفكرية المعـاصرة في المغـرب الأقصى.

المبحث الأول: اتجاه المدرسة العقلانية الحديثة في قراءة صحيح البخاري.

المبحث الثـاني: الاتجاه الفلسفي في قراءة صـحيح البخاري.

المبحــث الثالــث: الاتجــاه التاريخــاني في قــراءة صحيح البخاري.

المبحث الرابـع: الأثـر العقـدي والفكـري لهـذه الاتجاهات على بلاد المغرب.

الخاتمة.

* * *

مدخل

الاتجاهات الفكرية المعاصرة في المغرب الأقصى

كان نشوء الحواضر العلمية في بلاد المغرب العربي متقدمًا جـدًا، فـالقيروان بتـونس، والقـرويين بـالمغرب الأقصى أكبر حاضرتين علميتين كان لهما الأثر الكبـير في انتشار العلم والعلماء في باقي أنحاء المغرب والأنـدلس، ومـنهما انطلـق العلـم إلى بـاقي أنحـاء المغـرب، وصـار الانتساب إليهما شـرفًا يتسابق أهل العلم إليه.

وقد تعددت العنايـة بـالعلوم في المغـرب، لكـن كانت عناية المتقدمين المغاربة بعلم الكلام والمنطق عناية قوية، حتى لا يكاد يوجد عالم إلا وتجد في سيرته أنـه قـد اشـتغل بهـذين العِلْمـين في الأعـم الأغلـب. وكثـرة الشـروح والحواشي والمنظومات في هذين العلمين دليـل

على ذلك، وهذا قد ترك أثـرًا كبـيرًا في التركيبـة الذهنيـة للمغاربة. فضلا عن اشـتغالهم وعنـايتهم بعلـوم اللغـة العربية.

وأكبر شخـصيتين أثرتـا في الاتجاهـات الفكريـة المغربية المعاصرة هما: ابن رشد الحفيـد، وابـن خلـدون، فكانـت علـوم الفلـسفة، وعلـم الاجـتماع، حـاضرةً في تكوين الفكر المغربي.

وفي القرون المتأخرة كان للاستعمار أثـرٌ في نـشوء الاتجاهات الفكريـة، سـواء كانـت الاتجاهـات المـضادة للاستعمار كفكـر المقاومـة بـين أهـل العلـم، والأفكـار الباحثة عن المحافظة على الهوية، أو الأفكار التي نـشأت متأثرة بالثقافات الغربية كالفرنسية والإسبانية ونحوها.

مما سبق يتضح أنَّ الفكر المغربي المعاصر اجتمع له ما لم يجتمع لغيره في بلاد المشـرق مـن أسـباب وعوامـل تجعل نشوء المذاهب الفكرية المعـاصرة واتجاهاتهـا قويًّـا وبالغ الأثر.

وإذا أردنـــا معرفـــة الخطـــوط العريـــضة لهـــذه الاتجاهات الفكرية التي ظهرت في القرن التاسع عـشـر، وأثَّرت في الحياة الفكرية، فإنها كالتالي:

1- **الاتجاه الفلسفي والمنطقي**. وهذا يـشمل مـن كانت أطروحاته فلسفية إسلامية أو منطقية إسلامية، كما هو الظاهر في أطروحات د. طه عبد الرحمن الذي أسس في مؤلفاته لمنطق إسلامي أو فلسفة إسلامية مناهـضة أو مغايرة لفلسفة ابـن رشـد أو الفلـسفة الرشـدية، والتـي انتقد فيها المتأثرين بها.

كما يـدخل في هـذا الاتجـاه الفلـسفي - أيـضًا - الاتجـاه الفلـسفي الحـداثي، ويُمثلـه في المغـرب العـربي د.محمد عابـد الجـابري في أطروحاتـه، حيـث اعتـبر أن فلسفة ابن رشد هي الفلسفة التـي تعيـد للعقـل العـربي هويته وحداثته التي فقدها بسبب تعطله في التفكير منـذ زمن متقدم. مع أن الجـابري في تطبيقاتـه لهـذه الفلـسفة يتوافق مع أهداف العلمانية الشاملة، فالفلسفة ليست إلا المرجع العلمي للعلمانية.

وقـد كـان لهـذا الاتجـاه أثـره الكبـير في الحيـاة التعليمية النظامية في المغـرب، فقـد دخلـت الفلـسفة في مناهج التعلـيم منـذ الـستينات والـسبعينات الميلاديـة، وتطورت وتغيرت مرات عديدة، وكـان مـن المـشتغلين بتطويرها د.محمـد عابـد الجـابري وغـيره مـن المهتمـين بالفلسفة. وقد كان لهذا أثر في الأجيال التي نشأت خلال الخمسين سنة الماضية في المغرب.

2- **الاتجاه التاريخي (التاريخانية)**. وهـذا الاتجـاه يُمثله في المغرب العربي عبد الله العـروي في أطروحاتـه، وكذلك محمد أركون، وهو نسق من الأنساق العلمانية، كـما في قولنا: إنَّ الفلسفة الحداثية نسق من أنساق العلمانية. لكن هذا الاتجاه يقوم على تاريخية النص والدلالة عليه ونزعه من السياقات الأخرى غير التاريخية.

3- **اتجاه المدرسة العقلانية الحديثة**. والمقصود بها مدرسة محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، وهي مدرسة ذات اتجاه فكري ظاهرها الصبغة الدينية إلا أن المحتوى عقليٌّ محض، عقليٌّ في تفسير النصوص الشرعية والتأويل المقاصدي، مع العناية بالعلوم الشرعية عناية ظاهرة، وقد تأثر بهذه المدرسة بعض العلماء الشرعيين في المغرب، ومنهم الذين ردَّ عليهم العلماء المغاربة كما ستأتي الإشارة إليه.

هذه الاتجاهات الفكرية كانت لها – ولا تزال – آراء وقراءات لصحيح البخاري وأحاديثه، باعتباره أهم مصدر في التراث بعد القرآن الكريم. وهذه الاتجاهات تختلف قراءاتها بناء على خلفياتها المعرفية وأسسها التأصيلية. ولا تزال هذه القراءات باقية اليوم في المواد المقروءة والمسموعة لدى المتلقي المغربي.

ومن المهم جدًا الإشارة والتنبيه إلى أنَّ **الاتجاه الشرعي** في المغرب الأقصى هو الأصل الأصيل في الماضي، وهو السائد إلى اليوم في المغرب العربي لدى العامة والخاصة، وهو المبني على ركيزة واحدة وهو اعتبار صحيح البخاري أصح الكتب بعد كتاب الله – تعالى – وله التعظيم الذي كان عليه المغاربة الأولون[1].

وهذا الاتجاه، أعني به ما عليه علماء المغرب من تعظيم السنة النبوية وما عليه علماء الإسلام منذ الصدر الأول؛ سواء كانوا علماء مشتغلين بعلم الكلام كالأشاعرة، أو العلماء السلفيين والمشتغلين بالحديث، فهؤلاء كلهم لا يختلفون على قيمة ومكانة صحيح البخاري، ومصدريته العظمى في الإسلام .

* * *

المبحث الأول: اتجاه المدرسة العقلانية الحديثة في قراءة صحيح البخاري

المدرسة العقلانية الحديثة في بلاد المسلمين يُراد بها أولئك العلماء الذين اتخذوا مواجهة النص بالعقل المحض، فما وافق عقولهم أخذوا به، وما خالف عقولهم رفضوه وأولوه. وقد اصطلح الباحثون على إطلاق اسم المدرسة العقلية الحديثة على المنهج الذي اتفق عليه جمال الدين الأفغاني (ت 1315هـ) ومحمد عبده (1323هـ) وجاؤوا به في نهاية القرن الثالث عشر الهجري ومطلع القرن الرابع عشر الهجري إلى بلاد المسلمين وفي مصر تحديدًا.

يقول الشيخ محمد حسين الذهبي (ت1397هـ) في

(1) وليست مسألة تفضيل بعض المغاربة لصحيح مسلم على صحيح البخاري كما نُقل عن ابن حزم؛ مؤثرة هنا، فالتفضيل راجع إلى أمر الترتيب والوضع، وليس الأمر متعلق بالصحة من عدمه، أو انتقاص المفضول بتقديم الفاضل. وانظر إلى هذه المسألة في تدريب الراوي (1/ 92-101)، فتح المغيث (1/ 42).

هذه المدرسة : (أعطت لعقلها حرية واسعة، فتأوَّلتْ بعض الحقائق الشرعيَّة التي جاء بها القرآن الكريم، وعدَلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، وليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الاستبعاد والاستغراب، استبعاد بالنسبة لقدرة البشر القاصرة، واستغراب لا يكون إلا ممن جهِل قدرة الله وصلاحيتها لكلِّ ممكن، كما أنها بسبب هذه الحرية العقليَّة الواسعة جارت المعتزلة في بعض تعاليمها وعقائدها، وحمَّلت بعض ألفاظ القرآن من المعاني ما لم يكن معهودًا عند العرب في زمن نزول القرآن، وطعنتْ في الحديث تارة بالضعف وتارة بالوضع، مع أنها أحاديث صحيحة)[2].

وقد كان من رجال هذه المدرسة محمد رشيد رضا (ت 1354هـ) والشيخ محمد مصطفى المراغي (ت 1364هـ).

تأثر بهذه المدرسة بعض شيوخ المغرب الأقصى والمدرسين في المساجد، وإن لم أهتدِ إلى أسمائهم، لكن دلت المؤلفات والردود على وجودهم في المغرب الأقصى. ومما تأثر به هؤلاء الشيوخ المغاربة: قراءةُ هذه المدرسة العقلية الحديثة لبعض أحاديث صحيح البخاري، فوقعوا في تأويل الأحاديث التي أولها محمد عبده والأفغاني والمراغي وغيرهم، ذلك أنَّ العلامة المغربي محمد بن الحسن الحجوي (ت1376هـ) كتب ورقات بعنوان (**الدفاع عن الصحيحين دفاعٌ عن الإسلام**) تناول فيها الجواب عن شبهات أثيرت تجاه سبعة أحاديث في الصحيحين، ألفها على إثر رأيٍ أصدره أحد الشيوخ المغاربة – المتأثرين بالمدرسة العقلانية الحديثة– على أحاديث في الصحيحين بأنَّها مكذوبة، ومنها أحكامٌ قالها في مجلس من المجالس السلطانية في شهر رمضان سنة 1362هـ، حيث قال الحجوي: (وليس لنا أن نسكت حين نسمع في مجلس مولانا[3] – أيده الله – أن الحديث في صحيحي البخاري ومسلم يقال: فيه مكذوب، وأن الملاحدة وضعوه، وأهل الأهواء والبدع صنعوه، ويقول هذا جهرًا مشافهًا به أمير المؤمنين، ويكذب ويطعن في رجال الصحيح، وعموم الأمة يَستقي بهم الغمام)[4].

ومما قاله الشيخ الحجوي في رسالته: (إذا ساء ظن المسلمين بالصحابة ورجال البخاري ومسلم وأئمة الدين نقلة الشرع المطهر، واتهموهم وكذبوا الكتب الصحيحة التي وقع الإجماع على قبولها؛ وهي الحجة التي بين أيدينا وأيدي المسلمين في عموم الأرض أو دخلهم

(2) التفسير والمفسرون (2/ 549)، وانظر منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير (1/ 67).

(3) يعني السلطان محمدا الخامس سلطان المغرب.

(4) الدفاع عن الصحيحين دفاع عن الإسلام (ص122).

التشكيك فيها، صارت ديانتنا إلى ما صارت إليه ديانة اليهود والنصارى المطعون في كتبهم، وصرنا نطعن ديننا بيدنا، وليس لذلك من فائدة سوى شفاء صدورهم، وصاروا يقولون لنا: نحن وإياكم في الهوى سوا، وكان هذا العمل عبارة عن هدم الدين لا أقل ولا أكثر)[5].

وقد أبان الشيخ الحجوي في رسالته عن تأثر هذا الطاعن بالشيخ محمد عبده وفكره[6]، ومنه يتضح المنهج الذي بنى عليه هذا الشيخ فكره تجاه الصحيحين، وهو منهج المدرسة العقلية الحديثة. وقال الشيخ الحجوي: (ولعل ما أظهره الملاحدة من التأفف والتأسف على حديثي السحر والسم؛ ليس بمراد صح، وإنما يريدون تشكيكنا في سنة نبينا، وهدم أساس ديننا). وحديث سحر النبي ﷺ من الأحاديث التي تأولتها هذه المدرسة[7].

ومما يدل على أن الشيخ محمد عبده كان له ذكر وصيت في المغرب، أنه أرسل رسالتين" إحداهما إلى سلطان المغرب يُخبره فيها بظهور جمعية إحياء العلوم العربية بالقاهرة، ويسأله أن يُمدّ هذه الجمعية بكنوز المخطوطات المغربية، والرسالة الثانية إلى قاضي المغرب يطلب منه نسخة من مخطوطة المدونة التي في القرويين[8]. وهذه إشارة إلى الصلة العلمية في المغرب مع الشيخ محمد عبده.

وفي نفس المرحلة الزمنية ألف الشيخ محمد بن أحمد بن إدريس العلوي – وهو من ذرية السلطان إسماعيل– (ت1367هـ) رسالةً في رد الشبهات الطاعنة في حديث صكِّ موسى عليه السلام لملَك الموت الوارد في الصحيحين[9]، هذه الشبهات أورثتها المدرسة العلقية الحديثة في نفوس وعقول بعض شيوخ المغرب الذين ردَّ عليهم العلوي.

ويرى الشيخ العلوي أنَّ الشبهات حول هذه الأحاديث عند بعض شيوخ المغاربة المتأثرين بهذه المدرسة العقلية لا تزال قائمة، وأنها لم تحسم بعد – في زمنه – حتى قال: (ولقد شافهني المرة بعد الأخرى

(5) الدفاع عن الصحيحين دفاع عن الإسلام (ص116).

(6) مع أن الشيخ الحجوي أثنى على محمد عبده ومنهجه الفكري عمومًا في كتابه الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (4/ 200).

(7) انظر موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية (2/ 206 وما بعدها).

(8) الأستاذ الإمام محمد عبده ودوره في الدعوة إلى إحياء التراث، يسري عبد الغني، مقال منشور في موقع الألوكة. والرسالتان نشرهما محمد رشيد رضا في كتابه سيرة الأستاذ الإمام محمد عبده.

(9) وحديث إرسال ملك الموت لموسى عليه السلام وضربه بيده [كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى رقم 3407] هو من أكثر الأحاديث التي تأولتها المدرسة العقلية الحديثة، ومنهم محمود أبورية، ومحمد الغزالي، انظر موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية (2/ 231 وما بعدها).

بعضُ الأعيان من رؤساء علماء هذه الديار المغربية بما أفادني تمكن إشكال الحديث منه، وأنَّه لأجل ذلك يجزم بعدم صحته، وربما أكد ذلك بالأيمان المغلظة)، فكان هذا هو سبب تأليف الشيخ العلوي رسالته التي سماها: **"توضيح طرق الرشاد لحسم مادة الإلحاد في حديث صك الرسول المكلَّم موسى عليه السلام للملَك المكرَّم"**[10].

هذا الاتجاه في المغرب كان متأثرًا باتجاه هذه المدرسة العقلية التي ظهرت في مصر، ويمكن وصف هؤلاء المتأثرين بهذه القراءة لصحيح البخاري،بأنهم لا يطعنون في صحيح البخاري إجمالاً، ويتولّون شرحه والاستدلال به، إلا في الأحاديث التي تلقفوا شبهاتِها من هؤلاء، فردوها وطعنوا بها؛ لأنها تخالف العقل، فتأصل عندهم أنه يسعهم ردُّ بعض أحاديث الصحيح، وتأويلها بالعقل، وعدم العمل بها.

* * *

المبحث الثاني: الاتجاه الفلسفي في قراءة صحيح البخاري

قدمت الأطروحات الفلسفية في المغرب العربي قراءات وآراء تجاه صحيح البخاري ما بين إجمال وتفصيل، لكن هذه الأطروحات تختلف من حيث نتيجتها بناء على اختلاف استخدامها، وتوجيهها للفلسفة.

وسأكتفي هنا بذكر نموذجين من نماذج أصحاب الاتجاه الفلسفي في المغرب، وقراءتهم لصحيح البخاري:

1- اتجاه الدكتور محمد عابد الجابري:

الدكتور محمد عابد الجابري أحد المهتمين بتراث ابن رشد، وممن يرى بناء الحداثة العربية على الفلسفة الرشدية. ومن القضايا التي يقررها الجابري، ويدافع عنها: أن الحقيقة واحدة عند ابن رشد، فالنص الديني حقيقته واحدة من وجه واحد فقط؛ لكن الإدراك لهذه الحقيقة تتفاوت فيه الدرجات، فإدراك العلماء لهذه الحقيقة يختلف عن إدراك الجمهور. ويمكن تطبيق هذا الكلام في نظرته العامة لصحيح البخاري والحكم عليه حيث يقول: (**أما كون هذا الحديث أو غيره صحيحًا حسب اصطلاح علماء الحديث فمعناه أنه يستوفي الشروط التي وضعها جامع الحديث لنفسه، وكلها شروط تخص السند وليس المضمون، فصحيح البخاري هو صحيح من حيث السند فقط طبقًا للشروط التي وضعها البخاري في تلقي الحديث ..**)[11]. فهو يرى أنَّ

(10) وقد طُبعت هذه الرسالة مع رسالة الحجوي السابقة في مجلد واحد، طبعها الشيخ المحقق محمد بن عزوز - رحمه الله - في دار ابن حزم سنة 1424هـ، 2003م .

(11) نشر هذا الكلام في كتيبه الدوري مواقف، ولم أقف على نصه، لكن نقلته من مقال: نقد مواقف الجابري بخصوص الحديث

صحيح البخاري صحيحٌ سندًا بالنسبة للبخاري فقط، وعلى هذا لا يصح أن نطلق صحة البخاري عند غيره من المحدثين والعلماء، كما أنه يرى أن صحة الحديث عند البخاري هو في سنده، فعمل البخاري هو في وضع إسناده واشتراطه اللقيا والمعاصرة، فلو سلمنا صحته سندًا فقد يكون ضعيفًا في المتن، وعليه تكون دلالة متن البخاري دلالة لا تخضع لشروط سند البخاري وصحتها. هذه هي قراءة د.الجابري لصحيح البخاري من حيث السند والمتن، وهي قراءة مبنية على أصلٍ عنده في السنة النبوية مطلقًا، وهي أن الحديث النبوي عند د.الجابري لا يكون إلا مُفسِّرًا للقرآن، وليس مصدرًا من مصادر التشريع حيث يقول: **(حديث النبي – عليه السلام – إنما وظيفته تبيين ما في القرآن، وليس الإتيان بتشريع جديد أو إضافي)** وقد استدل لهذا الأصل الذي أصَّلهُ بقوله – تعالى ـ: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُـزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون}، فوظيفة الحديث النبوي على ضوء مفهوم الجابري للآية هو أن يكون مُبيِّنًا للمنزَّل الذي هو القرآن.

ويقول الجابري في موضع آخر في نفس المعنى مستخدمًا النقد التاريخي لقراءة صحيح البخاري: **(وكتب الحديث الصحيحة كصحيح البخاري وصحيح مسلم، إنما هي صحيحة بالنسبة للشروط التي وضعها أصحابها لقبول الحديث. الحديث الصحيح ليس صحيحًا في نفسه بالضرورة، وإنما هو صحيح بمعنى أنه يستوفي الشروط التي اشترطها جامع الحديث كالبخاري ومسلم، ونقد الحديث يتناول نقد السند كما قد يتناول مضمونه، أما نقد السند أو الرواية فلهم في ذلك قواعد وأساليب تقوم على الجرح والتعديل، أما نقد المضمون – ولو أن الاهتمام به أقل – فيقوم على اعتبار السنة النبوية (قولا وعملا وإقرارًا) مبينة للدين شارحة للقرآن، وبالتالي يجب ألا يتناقض الحديث مع القرآن. وإذن فالنقد التاريخي بالنسبة للحديث قد مورس على نطاق واسع، منذ عصر التدوين، وهو يشكّل جزءًا من التراث، وهو قابل للنقد كغيره من أجزاء التراث الأخرى)**.

والحقيقة أنَّ هذه القراءة للجابري تجاه صحيح البخاري تنطلق من وثوقيته بمنهج ابن رشد من أن الحقيقة واحدة من وجه واحد، وهذه الأسباب المحيطة بصحيح البخاري تمنع من الوصول إلى فهم هذه الحقيقة الواحدة، كما سيأتي في مثال حديث الأئمة من قريش.

كما أن هذه القراءة للجابري تُبين عدم ثقته بتوافر الأفهام والألحاظ عند المحدثين حينما اتفقوا على تعظيم مكانة صحيح البخاري بالآليات المتخصصة لديهم، بينما هو يُعمل آراء ابن رشد بآليات فردية خالفه فيها عدد من

النبوي لحفيظ المسكاوي، المنشور في موقع هسبريس المغربي.

المتخصصين في مجاله. فانظر كيف يتناقض الجابري مع الحقيقة التي يدعو إليها في قراءة التراث.

أما قراءته الحديثية عن الصحيح فهي بعيدة عن حاله، وهذا مما لا يشك به عارف بالصحيح ومؤلفه البخاري، ولا من لديه أدنى معرفة بعلوم الحديث ومصطلحه وروايته ودرايته. وإن كان د.الجابري يملك أدوات الفهم لفلسفة ابن رشد فإنه لا يملك أداة واحدة للتفريق بين ثبوت صحة الحديث عند البخاري سندًا وبين عدم ثبوت صحته متنًا، فضلاً عن أن يُثبت عدم صحة البخاري سندًا عند أئمة الحديث، بل إن د.الجابري لا يعرف الحديث الذي في البخاري من غيره، فقد نسب في بعض المواضع حديثًا لصحيح البخاري وهو لم يرد فيه، ولا في مسلم(12).

يقول الدكتور خالد كبير علال في منهجية الجابري مع الأحاديث: (الجابري في تعامله مع الأحاديث النبوية الصحيح من حيث التخريج والتحقيق، عمله هذا لا شك أنه يثير لدى القراء إشكالات، واضطرابات وشكوكًا) (13).

حديث (لا يزال هذا الأمر في قريش)

في هذا الحديث نأخذ نموذجًا تطبيقيًا لقراءة الجابري أحاديث صحيح البخاري والحكم عليها، حيث ذكر الجابري أثناء حديثه عن الخلافة بعد موت النبي ﷺ وعنون فصولها بـ (من الردة إلى الفتنة)(14) أشار عند الكلام على تولي أبي بكر الصديق الخلافة إلى طريقة البخاري في تناول أحاديث الإمامة من قريش، حيث يقول: (**ومما يلفت النظر أن البخاري الذي روى الحديث المذكور – يقصد حديث الأئمة من قريش – يعتمد سبق الروايات التي ذكرناها قبل عند حديثه عما جرى في سقيفة بني ساعدة، ويذكر احتجاج أبي بكر على الأنصار بأن المهاجرين (هم أوسط العرب دارًا وأعربهم حسبًا) ولا شيء غير ذلك، أما حديث الأئمة من قريش فيذكره البخاري في مكان آخر مرويًا عن معاوية بن أبي سفيان في سياق ردِّه – ردِّ معاوية وهو خليفة – على الذي كان يتحدث عن ظهور القحطاني؛ أي: تحول الملك إلى**

(12) انظر ما قاله في نسبة الحديث الذي رواه أحمد في المسند (2/ 533)، والترمذي في السنن (5/ 293): (ما بعث الله نبيًا إلا في منعة من قومه) إلى صحيح البخاري في كتابه: **العقل السياسي العربي** (ص83).
وقد تتبع الدكتور خالد كبير علال أخطاء د. الجابري وأركون في السنة النبوية ومفهومها عندهم ضمن كتابه : **"الأخطاء التاريخية والمنهجية في مؤلفات محمد أركون، ومحمد عابد الجابري"**.

(13) انظر: الأخطاء التاريخية والمنهجية في مؤلفات محمد أركون ومحمد عابد الجابري (ص 19).

(14) انظر العقل السياسي (ص 136–138).

اليمنيين ...) ثم ذكر رواية البخاري[15] **وقال: (ومع أن البخاري يذكر في رواية أخرى عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: (لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان)**[16] **فإن الرواية الأولى عن معاوية وفي السياق المذكور، تفتح باب الطعن في صحة هذا الحديث فضلاً عن تعارضه مع حديث آخر رواه البخاري نفسه بصيغة : قال رسول الله ﷺ: (اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي، كأن رأسه زبيبة)** [17]**، كما يتعارض تعارضًا مطلقًا مع حديث رواه البخاري عن أبي هريرة بصيغة: قال رسول الله ﷺ (يُهلِكُ الناسَ هذا الحيُّ من قريش، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: لو أن الناس اعتزلوهم)**[18]**، وعلى الجملة فالأحاديث التي تتعرض لقضايا السياسة قد شابها الوضع بدرجة كبيرة)** [19].

في هذه القراءة يُصوِّر الجابري البخاري أنه يستخدم الحديث النبوي حسب الحاجة السياسية، فكما أنَّ أبا بكر وعمر لم يحتجَّا بحديث "الأئمة من قريش" أمام الأنصار – وهو من أقوى الحجج لهم على الأنصار – أيضًا فالبخاري لم يستدل به في حديث السقيفة حسب فهم الجابري، وإنما استدل به في مقابلة الخبر الذي يدل على مُلك القحطانيين وانتزاعه من قريش، وهذا يفتح باب الطعن في صحة الحديث، هذا من وجه، ومن وجهٍ آخر يرى الجابري أن حديث "الأئمة من قريش" يعارض أحاديث أخرى، كحديث السمع والطاعة للعبد الحبشي، وكون هلكة الناس تكون من أمراء من قريش.

هذه القراءة للجابري توضّح لنا حجم تكلُّفه في التفسير، وتوهمه الذي لا يدل عليه السياق، بل ويرجّح الظنون التي لا تدل عليها ألفاظ الحديث، وجرأته على الصحابة، حيث فهم من أن أبا بكر وعمر لم يحتجَّا بالحديث في سقيفة بني ساعدة مما يكون طعنًا فيه؛ لأنه لم ير لفظ الحديث نصًّا في القصة، بينما معناه موجود في كلام أبي بكر الذي رواه في الصحيح. وابن بطال رأى أنَّ

(15) قال البخاري في صحيحه: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال: كان محمد بن جبير بن مطعم، يحدث: أنه بلغ معاوية – وهو عنده في وفد من قريش – : أن عبد الله ابن عمرو، يحدث: أنه سيكون ملك من قحطان، فغضب، فقام فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإنه بلغني أن رجالا منكم يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله، ولا توثر عن رسول الله ﷺ وأولئك جهالكم، فإياكم والأماني التي تضل أهلها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله في النار على وجهه، ما أقاموا الدين». كتاب الأحكام، باب الأمراء من قريش، حديث رقم 7139.

(16) كتاب الأحكام، باب الأمراء من قريش، حديث رقم 7140.

(17) كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة ما لم تكن معصية، حديث رقم 7142.

(18) كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم 3604.

(19) العقل السياسي (ص136).

كلام أبي بكر يعضد هذا الحديث[20]. كما أن الأئمة قد بينوا ألا تعارض بين ما ذكره معاوية ﷺ مع حديث عبد الله بن عمر، من أنه إمَّا أن يكون وقوع هذا الحديث بناحية من نواحي أمصار المسلمين، ويبقى حديث معاوية على أصله وعمومه، أو أنه اختل الأمر الذي تعلق به، وهو قيامهم بهذا الدين، وقد اعتبر ابن التين هذا عذرًا في إنكار معاوية، وكذلك ابن حجر قد عذر معاوية في إنكاره[21]، مع أن من قال: إنه لا وجه لإنكار معاوية قد قال بأنه لا يفضي إلى التعارض للأجوبة السابقة التي تدفع التعارض. وقد أطال شراح الصحيح الحديث والتوجيه في شرحه، وهذه أمور لا تتسع لذهن د.الجابري وطريقته في التعامل مع النصوص الشرعية التي وضع العلماء عبر تاريخ الإسلام من أجلها القواعد والأصول في الجمع بين الأدلة وقرائن الترجيح. فقد ضاقت سُبُل الفهم عند الجابري، ولم يبق إلا إبطال الأحاديث الأخرى؛ هذا على فرض أنها دلت على التعارض.

هذا موجزٌ عن قراءة محمد عابد الجابري ونظرته لصحيح البخاري، وهو النموذج الفلسفي الحداثي الذي يستخدمه في قراءة التراث، ومن خلاله يوجه النصوص الشرعية.

(20) شرح صحيح البخاري (8/ 211).

(21) فتح الباري (13/ 115)، عمدة القاري (16/ 74).

2- اتجاه الدكتور طه عبد الرحمن :

يمثل الدكتور طه عبد الرحمن المحاولة الإسلامية لصياغة فلسفة ومنطق لا يناقض تراث المسلمين، وتُجنِّب المسلمين الوقوع في آفات التطبيق الغربي للفلسفة، وله في هذا شروط تقوم على ثلاثة مبادئ[22]. ومع كثرة أطروحاته الفلسفية الناقدة لابن رشد والرشدية - التي هي عنده انتسابٌ إلى العلمانية[23]- ومحاولة صياغته لمنطق إسلامي إلا أنه عديم التعرض لأوعية التراث الإسلامي وقيمته النقلية، ولا تجد له كلامًا مباشرة عن النصوص يستشهد بها في تنظيره.

لكن القارئ لطه عبد الرحمن بشكل عام يفهم منه أنه معظم لمدلولات القرآن والسنة ومفاهيمها، وليس هو على منهج المشككين في صحيح البخاري لا في مكانته ولا في دلالته. ويمكن حصر الفهم في ذلك من ناحيتين:

1- أنَّه يُبطل الآليات الفلسفية التي تُستخدم لقراءة تراث الإسلام، ويرى أنَّها آليات من خارجه لا من داخله، حيث لا يصح عنده مراجعة تراث الإسلام

(22) حوارات من أجل المستقبل (ص 30) .

(23) يطلق د.طه عبد الرحمن على مذهب ابن رشد ومذهبه الفلسفي وَصْف الفتنة الكبرى، ويجعل كتبه الثلاث: تهافت التهافت، والكشف عن مناهج الأدلة، وفصل المقال ،ليست إلا دفع دعوى تقليد الأئمة والفقهاء . انظر حوارات من أجل المستقبل (ص 122- 124).

إلا بآلياته هو، وهي ما يُسميها آليات التداول الإسلامي أو الآليات المأصولة[24]. كما أن رفضه للخطط الثلاث التي استوردها الحداثيون للتعامل مع النص الديني: الأنسنة، والأرخنة، والعقلنة، تؤسس لمفهومٍ مغاير لمفهوم محمد عابد الجابري وأضرابه تجاه صحيح البخاري. فحين ينفي منهج تاريخية النص فإنه يجعل النص صالحًا لكل زمان، وحين ينفي عقلنة النص فإنه يُثبت تابعية العقل للنقل، أو ينفي عنهما التعارض.

2- خلفية د. طه عبد الرحمن الغزالية[25]، وتنظيره في الدفاع عن علمية الأدلة الشرعية، وعن علم أصول الفقه الذي استطاع أن يبني النسق النظري في استخراج الأحكام من النصوص[26].

إذا أضفنا لما سبق: تولي د.طه النقد المفصل لمناهج المغاربة الفلسفية والتي لها قراءات مخالفة لصحيح البخاري، فهذا يعطينا تصورًا لما عليه هذا الاتجاه الإسلامي داخل علم المنطق والفلسفة من مكانة السنة النبوية، وعلى رأسها صحيح البخاري.

* * *

المبحث الثالث: الاتجاه التاريخاني في قراءة صحيح البخاري

الاتجاه التاريخي في تفسير نصوص الشريعة هو مسلك من المسالك الحداثية العلمانية، ويراد به تفسير النصوص بحقائقها ومعطياتها وتفاصيلها التاريخية من وقائع حقيقية، أو تأويلات أخلاقيه وآراء وأساطير مرتبطة بتلك الوقائع. فالمنهج التاريخي يحكم على النص من خلال تاريخه المحيط به، الذي يؤثر في معناه والعمل به. وقد طرأ على هذا المنهج حدوثٌ وانقلابٌ في داخله، وهو بروز المنهج التاريخاني؛ وهو باعتباره فلسفة تاريخية حديث الظهور؛ حيث ظهر في القرن التاسع عشر الميلادي، ويراد به تفسير التاريخ بحقائقه الواقعية وتجريده من التفسيرات الأخلاقية القائمة على الاجتهاد أو الظن والوهم والأساطير المتعلقة به[27]. يمثل الاتجاه التاريخي الجزائري محمد أركون، ويمثل الاتجاه التاريخاني المغربي عبد الله العروي[28]، ويقول العروي في ارتباط التاريخانية بالمنهج

(24) انظر تجديد المنهج في تقويم التراث (ص 81، 243 وما بعدها)، وحوارات من أجل المستقبل (ص61)

(25) يرى د.طه عبد الرحمن أنه زاد على الغزالي أنه كان راغبًا في تصوفه لله، طامعًا في تعظيمه، بخلاف الغزالي الذي دخل التصوف فرارًا من الجاه والشك. انظر: حوارات من أجل المستقبل (ص140).

(26) انظر: أصول الحوار وتجديد علم الكلام (ص150-151).

(27) انظر مفهوم التاريخ، عبد الله العروي (ص348-349)، و الفكر الإسلامي قراءة علمية، محمد أركون (ص130).

(28) محمد عابد الجابري ممن يستخدم المنهج التاريخي في بعض أطروحاته، ولكن العروي وأركون لم ينفصلا في أطروحاتها عن هذا المنهج مع التمييز بين الطريقتين - التاريخية والتاريخانية- .

الفلسفي: (التاريخية كمنهج بحثي تؤدي حتمًا إلى التاريخانية كاتجاه فلسفي)[29]، ولا شك أنَّ المنهج التاريخاني هو أكثر انحرافًا وبعدًا في قراءة النصوص الشرعية؛ لأن التاريخانية على مفهومها لا يمكن أن تفسر النبوة – مثلاً – تفسيرًا مجردًا من الأحكام والأخلاق والمعطيات الغيبية والروحية الخارجة عن مفهوم الإنسان كاصطفاء الأنبياء والبراهين (المعجزات) التي تجري على أيديهم ونحوها.

ولعبد الله العروي صاحب المنهج التاريخاني بعض الإشارات والقراءات تجاه بعض أحاديث صحيح البخاري، النابعة من نظرته للقرآن والسنة النبوية. فالعروي يُقرِّر أنَّ النص الديني نص ثابتٌ قارٌّ، والتأويل هو المتغير، والزمن والتاريخ وعواملهما كفيلة بتغيير التأويل القديم إلى تأويل جديد، بل الحاجة والمنفعة تدعوان إلى ذلك، ويرى أن المصلحة المقررة عند الفقهاء هي النفعية اليوم المرتبطة بالمسلمين، وليس المسلمين الذين عاشوا في القرون الأولى، وزاد في ذلك وقال: إن ادِّعاء صحة تأويل معين هو من ادعاء النبوة. مع أنه عاد وذكر بأن التأويل له قواعد وأصول وشروط، ولا يمكن المغامرة فيه. ثم هو في كتابه (السنة والإصلاح) يُعرف السنَّة النبوية بأنها (كيفية تطبيق النص الأزلي على الواقع البشري المتحول)[30].

ومن الأمثلة التي طرحها العروي لفهم النص الديني الحديث المتفق عليه (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه ..)، يرى العروي أن هذا الحديث له زمنه التاريخي، وهي: القرون الأولى، ويرى أن هذا الحديث في عصرنا الحاضر لا أحد يرى العمل به، ونسب ذلك إلى فقهاء العصر اليوم، كما يرى أن هذا الحديث جاء في مرحلة تاريخية معينة، تعلق تأويله وتفسيره في ذلك الزمن. ولم يربط العروي هذا الحديث بمسألة الإمامة التي تنوب عن الناس في العمل بهذا الحديث، وإنما جعله في ظرف التاريخ هذا الظرف هو الذي أعطى معنى للحديث في ذلك الزمن لا ينطبق على هذا المعنى في عصرنا الحاضر[31].

* * *

المبحث الرابع: الأثر العقدي والفكري لهذه الاتجاهات على بلاد المغرب

مع وجود هذه الاتجاهات الفكرية حقبةً طويلة من الزمن في بلاد المغرب الأقصى (المملكة المغربية) لابد أن تترك أثرها في نفوس الناس والمفكرين تجاه السنة النبوية عمومًا، وصحيح البخاري على وجه الخصوص، فالنيل من صحيح البخاري هو نيل من دواوين السنة

(29) انظر مفهوم التاريخ، عبد الله العروي (ص349).

(30) السنة والإصلاح (ص 130).

(31) مقابلة تلفزيونية مع العروي في برنامج حديث العرب.

كلها، وما يقال فيه يقال في غيره من مصادر السنة.

وعند الحديث عن الأثر العقدي والفكري لهذه الاتجاهات، لابد من الإشارة إلى أنَّ أثر تعظيم البخاري وتاريخه في حياة المغاربة علماء وطلابًا وعامةً هو الأصل الذي ساد في بلاد المغرب عمومًا منذ وصول البخاري في القرن الرابع الهجري إلى أن ظهرت هذه الاتجاهات الفكرية. فباب حفظه وروايته وشرحه وقراءته والتعليق عليه عند المغاربة باب واسعٌ لا يزال أثره في نواحي المغرب. وتعظيمه قد دخل حياة المغاربة بجميع أصنافها؛ في الحياة السياسية والعسكرية والعادات الاجتماعية، فجاء وقتٌ لا تنفَّر الجيوش إلا بعد قراءته، وتسمية كتائب في الجيش باسم البخاري لا تزال باقية إلى اليوم. ودخل في حياة الناس الاجتماعية حتى كان يُقرأ عند عقد القِران، وكان مهرًا لبعض نساء المغرب. ودخل في الزوايا الصوفية قراءة وختمًا. وقد كشف كل هذا الدكتور يوسف بن إبراهيم الكتاني (ت1437هـ) – رئيس جمعية الإمام البخاري المغربية– في سفره النفيس المطبوع: **"مدرسة الإمام البخاري في المغرب"**.

لكن هذه الاتجاهات الفكرية التي ظهرت من القرن الماضي إلى عصرنا، قد تركت أثرًا عقديًا وفكريًا في بلاد المغرب الأقصى، ومن خلال الرصد السريع لبعض هذه المظاهر، يمكن حصرها فيما يلي:

أولاً: إلغاء السنة النبوية كمصدر من مصادر التشريع:

وهذا المظهر هو من أشد المظاهر والآثار العقدية والفكرية التي ظهرت مؤخرًا، فأصحاب الاتجاهات السابقة يسلكون مسلك التأويل في العموم، أو تفسير الأحاديث بالأحداث التاريخية، أوالمعارضة العقلية لبعض الأحاديث، لكن هذه الاتجاهات كانت هي البداية لمثل هذه الآراء الجريئة التي ظهر بها صاحب كتاب (صحيح البخاري نهاية أسطورة) وكذلك صاحبة كتاب (في نقد البخاري .. كان بينه وبين الحق حجاب) وكذلك صاحب كتاب (أكثر أبو هريرة) وأمثالهم[32]، حيث ظهروا في الإعلام المغربي وعلى السطح الثقافي بهذه الآراء الجريئة التي نتيجتها هي إلغاء السنة النبوية، واعتبار البخاري أسطورة في وضعه وقيمته وسنده، وغيره من دواوين السنة من باب أولى. فهؤلاء من آثار هذه الاتجاهات الفكرية الحديثة في المغرب.

ومع سطحية طرحهم وبعدهم عن المنهج العلمي وبروزهم بالطريقة الصحفية الساذجة، إلا أنهم – ومن

(32) رأيت مقالات ومقاطع لبعض الشباب المغاربة الذين يحملون نفس فكرة هؤلاء ، وهي إلغاء السنة النبوية كمصدر من مصادر التشريع، كونها عملا بشريا، ومعارضة للعقل إلى غيرها من الأسباب. ولأن البحث موجز، ويكفي فيه الإشارة إلى أصل القضية، وهي إلغاء السنة، اكتفيت بالإشارة إليه بوصفه أثرا من آثار تلك الاتجاهات الفكرية في قراءة صحيح البخاري.

خلال الإعلام وتسويق الجمعيات المؤيدة لهم - أصبحوا مؤثرين، فهم تقمصوا ثياب العلمية في الطريقة الصحفية، وظهروا بنتائج كبيرة صدمت الناس، كان أساسها إلغاء مصدرية السنة من مصادر التشريع في الإسلام، وهدمُ ما تلقته الأمة بالقبول.

ولصلة هذا الأثر بالاتجاهات السابقة، فقد حاول البعض من المؤيدين لهؤلاء ربط الدعاوى والتقريرات التي نادى بها أصحاب الاتجاه الفلسفي كمحمد عابد الجابري، والاتجاه التاريخي كعبد الله العروي في مراجعة التراث ونقده أو تفسيره تفسيرًا تاريخيًا تراثويًا؛ ربطوها بالنتيجة التي قال بها صاحب هذا الكتاب، أو غيره ممن يقول بهذا الكلام. فقد رأيت في بعض المقالات المؤيدة من يشير إلى هذا، بل حدثت ندوة في مدينة طنجة كانت فيها قراءة ومراجعة لهذا الكتاب، وكان أحد الدكاترة المحاضرين فيها يرى أن هذا الكتاب هو نتيجة لما طالب به الدكتور محمد عابد الجابري في مراجعتنا للتراث ونقده.

ثانيًا: تولية المرأة الولايات العامة:

هذه المسألة كان مستند المطالبة بها هو أن التجربة تعارض حديث (لا يفلح قوم ولو أمرهم امرأة) الوارد في صحيح البخاري، فقد قال أحد المفكرين - وهو عضو في رابطة علماء المغرب - بعد فوز أنجيلا ميركل برئاسة ألمانيا: (**هل نصدق ما يراد لنا أن نفهم من حديث: "لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة"، أم نصدق الواقع الذي نراه مع ميركل وما حققته لوطنها خلال ثلاث ولايات واستحقت معه الرابعة؟**)(33). وقد أحدث هذا الكلام أثره في الجمعيات النسوية المؤيدة لمثل هذه التصريحات المحسوبة على الشرعيين، كما أحدث أثره في الإعلام المغربي.

وهذا الرجل يعارض الحديث الوارد في الصحيح بناء على التجربة - حسب فهمه - التي رآها في الغرب، وهو تفسير عقلي محض مثيل للشبهات التي أثارتها المدرسة العقلية في بعض أحاديث البخاري(34).

ثالثًا: تشريع القوانين الوضعية:

كان التأويل الفاسد للسنة النبوية مدخلًا

(33) هو من كلام المفكر وعضو رابطة علماء المغرب - الذي كان معدودًا من السلفيين الغلاة سابقًا - محمد عبد الوهاب رفيقي على صفحاته في الفيس بوك. وهو رئيس مركز الميزان للوساطة والدراسات والإعلام.

(34) والجواب عن هذه الشبهة باختصار: أن التجربة السياسية في أوروبا ليست محلا لموضع الحكم على صلاحية الرجل أو المرأة للولاية العامة، بل إن الحكم عائد إلى أسباب عدة: منها أنظمة الاتحاد الأوروبي، وصلاحيات البرلمان والوزراء، والمحكمة التنفيذية وغيرها مما لا دخل للرئيس بها. هذا من جهة، من جهة أخرى فإن النجاح في الانتخابات ليست دليلاً على صلاحية الرجل أو المرأة المنتخب، وهذا يدل على قصور في فهم قائله، بل هو نابع من الإعجاب بالحالة الغربية ليس إلا.

للمطالبة بتشريع بعض القوانين الوضعية، ومثال ذلك ما طالب به بعض المفكرين المغاربة[35] من إلغاء مبدأ الإرث في الإسلام، ومساواة الرجل بالأنثى، ومما احتجّ به أحدهم أنَّ الأدلة في الميراث الواردة في صحيح البخاري تدل على فتح باب الاجتهاد في الميراث، والحاجة المعاصرة اليوم تجعلنا نساوي بين الذكر والأنثى.

وهذه الحجة ليست مستندة إلى قراءة صحيح البخاري بالفعل، بقدر ما هي مستندة إلى عدم قيمة التشريع عند هؤلاء، فالأدلة من القرآن صريحة وقطعية في أن للذكر مثل حظ الأنثيين، مع الحالات الواردة في السنة والتي قد ترث فيها المرأة أكثر من الرجل، لكن يُذكر البخاري وصحيحه في إطار الطعن العام في أصل السنة النبوية، وأنها ظنية يمكن تأويلها.

مثال آخر على تشريع القوانين المخالفة للشرع: ما طالب به بعض المؤلفين الشرعيين من إباحة نكاح المتعة وتشريعه؛ كون الزواج العادي لا يكفي في مواجهة الزنا. ومن الأدلة التي استدل بها المؤلف هو أن البخاري لم يخرِّج في صحيحه حديث سبرة بن معبد الذي فيه التصريح بحرمة نكاح المتعة[36]، مما يعني طعن البخاري فيه، وهو أصرح حديث في تحريم نكاح المتعة، مع إيراده لأثر ابن عباس في الترخيص به. ولم يشفع للبخاري عند هذا المؤلف كونه أورد حديث علي بن أبي طالب ﷺ عنه في النهي عن متعة النساء، وقد بوب فقال: (باب نهي رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة آخرا). وهذه قراءة راجعة للهوى والزيغ في الفهم، ليست على منهج معين أو على أصول ذات اتجاه فكري محدد[37].

وفي معرض الحديث عن الأثر العقدي والفكري لهذه الاتجاهات الفكرية تجاه صحيح البخاري؛ تنبغي الإشارةُ إلى الأثر المعاكس لهذه الاتجاهات في تناولها لصحيح البخاري، فكما أنَّ العلماء قديمًا قد ردُّوا على من تطاول على صحيح البخاري، فإنَّ الردود على من تطاول على صحيح البخاري في السنوات الأخيرة كثيرة جدًا، وقد تنوعت إلى مؤلفات، ومقالات، ومناظرات تلفزيونية، وتعليقات في وسائل التواصل الاجتماعي[38].

---

(35) منهم من سبق ذكره، ومنهم عدد من الجمعيات الحقوقية في المغرب.

(36) وهو قوله ﷺ: (يا أيها الناس، إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة. فمن كان عنده منهن شيء، فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا) أخرجه مسلم رقم (1406).

(37) هو محمد بن الأزرق الأنجري صاحب كتاب "**زواج المتعة قراءة جديدة في الفكر السنّي**" دار رواية، المغرب.

(38) من ذلك الردود على كتاب نهاية أسطورة، فقد بلغت عشرات المقالات، ومن المؤلفات: 1- الجهالات المسطورة في كتاب صحيح البخاري نهاية أسطورة، لمؤلفه : محمد بن أحمد رفيق، 2- الأسافة في كتاب الخرافة: صحيح البخاري نهاية أسطورة

خاتمة

الحمد لله. وبعد :

فقد تناولت هذه الأوراق اليسيرة الإشارة إلى الاتجاهات الفكرية وقراءتها لصحيح الإمام البخاري – رحمه الله – في بلاد المغرب الأقصى (المملكة المغربية). وكان سبب حصر الدراسة في تلك البلاد هو توافر المناهج الحديثة بأشكالها وقراءتها لصحيح البخاري. كما أنَّ المغرب الأقصى من البلاد التي عُظِّم فيها صحيح البخاري منذ القرن الرابع الهجري إلى يومنا هذا، وقد نبتت نوابت المناهج الفكرية في القرنين الماضيين، ونالت من صحيح البخاري.

وقد ظهر للباحث نتائج من خلال النظر في هذه المناهج وموقفها من صحيح البخاري، وهي كما يلي:

1- أن أصحاب هذه المناهج لا يحملون من أداة العلم بالحديث وأسانيده ونقدها، أثارةً من علم. وما خرج منهم إلا الأوهام والظنون والتأويلات العقلية الفاسدة.

2- أن الموقف الأصلي لهذه المناهج هو نظرهم للسنة النبوية المصدر الثاني للتشريع، وموقفهم من الاحتجاج به، كما في المنهج الفلسفي عند الجابري، الذي يرى أن السنة مفسرة للقرآن فقط. وهذه هي حقيقة هذه المناهج في نظرتها للسنة النبوية في الأصل.

3- أن ضرورة المرحلة والزمن تقتضي النزول إلى دركات هذه المناهج، وأصحابها، ما بين تنبيه المعتنين بهذه المناهج وأبعادها، وما بين الرد عليها تفصيلا.

والله أسأل أن ينفع بهذه الأوراق، وأن يكتب فيها الخير، إنه سبحانه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

المراجع

الأخطاء التاريخية والمنهجية في مؤلفات محمد أركون، ومحمد عابد الجابري، خالد كبير علال، دار الوراق.

أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

إمكان النهوض الإسلامي، مراجعة نقدية في المشروع الإصلاحي لعبد الله العروي، د.امحمد جبرون، مركز نماء.

تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

لمؤلفه الزبير دحان، 3- عبقرية البخاري لمؤلفه حماد القباج. وكذلك المؤلفات التي صدرت في الرد على خديجة البطار صاحبة مقالات (البخاري كان بينه وبين الحق حجاب) وهي مقالات صحفية نشرتها في جريدة الأحداث المغربية، ثم طبعتها في كتاب، منها كتاب: التطاول على صحيح البخاري في العصر الحاضر – دراسة نقدية لكتاب (في نقد البخاري) – للأستاذ مكي إقلاينية، وكذلك مقالات الأستاذ محمد زين العابدين رستم بعنوان: المعركة تحت راية البخاري.

تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين السيوطي، تحقيق نظر الفريابي، دار طيبة، الرياض.

التفسير والمفسرون، محمد الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة.

حوارات من أجل المستقبل، طه عبد الرحمن، الشبكة العربية للأبحاث.

الدفاع عن الصحيحين دفاع عن الإسلام، محمد الحجوي، ومعه توضيح طرق الرشاد لحسم مادة الإلحاد لمحمد بن أحمد العلوي، تحقيق محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، دار ابن الجوزي.

السنة والإصلاح، عبد الله العروي ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

شرح صحيح البخاري، لابن بطال، تحقيق ياسر إبراهيم، مكتبة الرشد.

العقل السياسي محدداته وتجلياته، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، دار إحياء التراث، بيروت.

فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، عناية محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

فتح المغيث شرح ألفية الحديث، شمس الدين السخاوي، تحقيق علي حسين علي، مكتبة السنة، القاهرة.

الفكر الإسلامي قراءة علمية، محمد أركون، مركز الإنماء القومي، المركز الثقافي العربي.

مفهوم التاريخ، عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد الرومي، مؤسسة الرسالة.

موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية، الأمين الصادق الأمين، مكتبة الرشد.